قصة قصيرة

القبضة والأرض

الدكتور علي هجازي

مع الفجر، كانت حبات الندى تغسل العشب والتربة وترويها، وتتراقص على أوراق الأشجار، حيث الهواء الناعم يمر مداعباً.

استفاقت الديوك، وأخذت تصدح معلنة انبلاج الفجر، فنهضت أم موسى من فراشها على صوت المؤذن، وقامت تتوضأ استعداداً للصلاة.. راحت تتمتم: «الهم نجِّنا من الأعداء يارب». وبينما هي كذلك، إذا بموسى يلقي عليها التحية:

ـ صباح الخير يا أمي.

ـ صباح الخير يا موسى، خير إن شاء الله؟ ما الذي أيقظك في مثل هذا الوقت؟

ـ سأصلي الصبح في الجامع.

ـ في الجامع؟ ولمَ لا تصلي هنا؟ فدورياتهم تنهب المنطقة، وكلابهم تراقب كل حركة في الضيعة.. ثم.. ثم مريم.. لا تنسى أنها على وشك الولادة..

قالت ذلك، وعلامات الانزعاج بادية على وجهها «الله يخبرني أن القضية أبعد من ذلك.. احرسه يا رب.. واحرس الشبان» واخذت تهز برأسها.

ـ لا بأس يا أمي.. لا بأس، ولا تحملي هماً.. فحالما أنتهي سأكون هنا..

الحارة هادئة، والطريق بين بيته والجامع خاوية من المارة، فالناس لا يغادرون بيوتهم في مثل هذا الوقت، ودورية الخامسة والربع تخنقهم وهدير جنازير دبابة «الميركافا» يضغط على أنفاسهم، لأن الجنود يطلقون النار في كل اتجاه، وعلى أي شيء يتحرك. لا فرق عندهم بين البشر والشجر والحجر.

وحدها عصافير الدوري كانت تزقزق، فتعزف لحناً جميلاً عند الصباح على أغصان شجرات السرو قرب الجامع، وبرودة الطقس تلفح وجهه فتغمره بالحيوية والنشاط، كأنها تغسله بالعطر.

تطلع إلى الساعة وهو يدلف إلى الجامع: «إنها الرابعة والنصف، إنه الموعد.. سألتقيهم هنا بلا شك».

ـ صباح الخير.

ـ أهلاً بموسى صباح الخير.

ـ أهلاً بكم.. كيف أحوالكم؟

ـ أحوالنا جيدة، وأنت كيف نشاطك؟ وكيف تدبرت أمرك مع أم موسى؟ قالها جميل مازحاً..

ـ أقنعتها بأني قادم للصلاة فقط.

ـ ومريم، هل هي بخير؟ أقلت لها بأنك آتٍ للصلاة، أم أخبرتها الحقيقة؟.. مسكينة مريم.. قلبها معنا، وعينها علينا.. على كلٍ، ربما تأتينا بموسى غيرك الليلة!..

ـ لا سمح الله لا سمح الله!.

قالها حسان، وتقدم يصافح موسى، ويربت على كتفه متوجهاً إلى جميل!

ـ «لا توصِ حريص».

ـ يا الله، تأخرنا يا جماعة.

قالها مفيد وهو يقترب من حسان.. فرد عليه موسى:

ـ جهَّزتوا البضاعة؟

ـ البضاعة جاهزة وموجودة في السيارة، ويبقى أن أعيد عليكم الخطة.

قالها حسان بحزم، وشرع يوزع المهام:

ـ انتبهوا. بعد ربع ساعة من الآن، نضع العبوة على الطريق، عند المنعطف، قرب اللحام.. العبوة يزرعها موسى، بينما ننتظره نحن على بعد مائة متر فقط، نقوم خلالها بمراقبة كل شيء.. الخامسة والربع، وكما هو متوقع، تمرّ الدورية وينتهي الأمر... مفهوم؟..

اقتربت المجموعة من حسان، وقال أفرادها بصوت واحد! مفهوم.. مفهوم..

كان حسان ينهب الطريق بسيارته في وقت سكت فيه جميل ومفيد عن الكلام، وراح موسى يستعرض صورة أمه التي ودعته قبل دقائق، وكلماتها ترن في أذنيه: «لا تتأخر يا موسى.. فمريم على وشك الولادة.. لا تتأخر..».

ـ لا تتأخر يا موسى بعد زرعك للعبوة.. فالدورية غدَّارة، وقد تداهمك في أية لحظة.. انتبه..

قالها جميل. بينما بدأ مفيد يتبرم من كثرة التوصيات. ولما ضاق صدره زفر وقال:

ـ أهي المرة الأولى التي يزرع فيها موسى عبوة؟.. قال لكم حسان قبل لحظات: لا توصوا حريصاً وانتهى..

عاد موسى يسبح في بحر أفكاره: «سامحيني يا أمي، لم أخبرك بالحقيقة كاملة، وهل تقبلين أن أخبرك بها؟.. على كل، سأقبِّل يدك عندما أعود، وأطلب المسامحة، ولا أظنك تمانعين..

وأنت يا مريم.. سامحيني.. لأني لم أودعك «فأنا أعرف أنك تنتظرين اليوم مولوداً، وربما غداً.. لا فرق.. أنا مثلك يا مريم أنتظره بفارغ الصبر، وأحب أن أراه.. فهو طفلنا الأول القادم إلينا.. أنا أحب الأطفال كثيراً يا مريم.. إلا اني أكره الحياة الذليلة.. ما قيمة الإنسان عندما يحيا بلا كرامة على أرضه؟ لقد قلتها لك مراتٍ عديدةٍ، أليس كذلك يا مريم.. سأعود إليك بعد العملية.. وربما لا أعود كما قال جميل: «القابع إلى يميني الآن.. ربما لا أعود؟».

قلب شفته السفلى، وراح يحدق في المروج البور ويتطلع إلى البيوت التي كانت تمر أمامه سريعة.. وهز رأسه «لعنهم الله» قطعوا الشجر، وأحرقوا الحجر.. وبصماتهم في كل مكان، ولهم في كل بيت حكاية، وفي كل دارة مأساة.. لعنهم الله، صهاينة التاريخ.. ربما لا أعود، عندها ألتحق بالقافلة.. بالأرض.. بالتراب يا مريم.. عندها تنفذين الوصية التي قرأتها لك.. نعم.. كثيراً ما حدثتك عنها.. وكنت تدمعين، وترفضين فكرة الموت، بل ذكره.. كلنا يكره الموت مريم.. لذا تقاتل. فإن كان المولود أنثى، سميها كما تشائين، وإن كان ذكراً، فليكن اسمه موسى.. نعم موسى.. وعندما يكبر قولي له: إن والدك رحل مع الفجر يحاكم الجلادين.. خرج مع الفجر يحطم اسطورة الرعب التي لا تقهر.. يمسح دموع الحزن عن وجوه الصغار.. سنهزمهم يا مريم.. إن موسى..

ـ موسى.. موسى.. وعاد جميل يقطع عليه حبل تفكيره.

ـ نعم.

ـ كن حذراً يا موسى.. فالغلطة الأولى هي الأخيرة.. أرجوك، لا تمزح مع المتفجرات..

فتبرم مفيد من جديد وزفر:

ـ هيا لننزل المتفجرات مع موسى.. بدأ حسان يتململ:

ـ إنها الخامسة والربع تماماً.. ولم يمروا.. لقد تأخروا.

أجابه موسى:

ـ لننتظر قليلاً.

تدخل مفيد:

ـ لا نستطيع يا حسان.. فقد تمر سيارة فوق العبوة، وتحصل الكارثة.

ـ لنقطع الطريق في الاتجاهين..

قالها موسى منتظر إشارة من حسان..

ـ لا تتسرع يا موسى، إني اعرفك حكيماً. وإذا مرت دابة فوقها.. ماذا ينفع الندم بعدها؟

ـ صحيح، معك حق.

تدخل مفيد من جديد: ننتظر خمس دقائق، وبعدها يذهب موسى ويفكك العبوة، وتؤجل العملية إلى فجر الغد.

حسان يهز برأسه:

معك حق.. لننتظر.

ساد الصمت مجدداً، قال حسان بعده:

ـ هيا، أسرع يا موسى، ولا تتأخر.. بإشارة نكون على مقربة منك. نحملك معنا ونعود.. أنتبه يا موسى..

بدأت الشمس تطل خجولة على الأرض الندية، وعلى موسى الحاني على العبوة يعمل على تفكيكها.. لحظات، وأخذت الأرض تميد تحت جنازير «الميركافا».

أعاد موسى التراب على عجل، وترك العبوة، وقفز إلى جانب الطريق، وتابع الركض.. فاطلقت باتجاهه عدة رشقات، انفجرت العبوة بعدها وأخذت النيران تأكل «الميركافا».

ضرب مفيد كفاً بكف:

ـ لا شك أنه استشهد يا حسان.. لم يستطع الابتعاد كثيراً.. واعتقد أنهم أصابوه..

ـ انتظراني هنا، سأتفقده بنفسي.

انتبه يا حسان.

اطمئن يا مفيد، فالصهاينة لن يحضروا إلى هنا قبل ساعتين.

تطلع مفيد إلى جميل وقال:

ـ الميركافا تحترق، وموسى بعيد عنها.

ـ ما رأيك هل استطاع النجاة؟

ـ سنعرف بعد قليل.. انظر انها تحترق.

ـ وأخيراً.. أخيراً احترقت.. أف..

ـ أنا مسرور الآن يا مفيد، بل أشعر بأنني أسعد رجل في الدنيا..

ـ لأن الميركافا احترقت؟

ـ ولأن أحداً من الأهالي لم يصب بأذى، الزجاج وألواح الشبابيك، أشياء تعوض.

ـ مفيد.. مفيد.. انظر.. ها حسان يشير إلينا بيده، هلم نسرع.

وقف الضابط الإسرائيلي قرب حطام الميركافا، يصرخ بصوت عالٍ شبيه بالحوار:

ـ فتشو المنطقة: اعتقلوا الشباب.. كل المخربين..

فتشو البيوت؛ كل الناس. اسحبوا كل الرجال إلى المعتقل.. هيا.. قال ذلك، بينما راح الجنود يتقدمهم العملاء يفتشون البيوت، والأرض المحيطة بمكان الانفجار..

ـ هذه هي.. إنها له.. قالها أحد العملاء.

ما هي؟.. ابق مكانك:

وبدا الضابط الصهيوني حذراً ومرتبكاً.

كانت يد موسى منزوعة من المرفق، ومهشمة، وبقربها بقع دماء، وأصابعه الخمسة مقبوضة تماماً.

تقدم الضابط، وقد امتقع لونه، بينما تظاهر بالسرور:

ـ عال. عال.. افرحوا.. دماؤه هنا.. وقبضته.. قال ذلك، تاركاً القبضة في الحقل، ومضى يفتش البيوت والحقول عن المجموعة، بينما وقف اثنان من الجنود يحرسان القبضة، علهم يتعرفان إلى من يدلهما على صاحبها، ومضى العملاء يبحثون بدورهم عنه.

انضمت أم موسى إلى النسوة اللاتي تجمهرن حول القبضة.. وأخذت تحدِّق فيها ملياً، إنها له.. خاتم الزواج في بنصره، وشقوق اليد المعروقة تعرفها.. إنها الكف المعيلة لها ولإخوته بعد استشهاد زوجها عادل.

حاولت أن تكظم غيظها، وان تبقى ساكتة، لكنها سرعان ما انفجرت غاضبة، وصرخت بالنسوة:

ـ هيا، ماذا تنتظرن؟ هلموا ندفن القبضة.. كانت كلماتها أفعل من السحر في نفوس النسوة، وتقدمت امرأة تريد وضع القبضة بمنديلها.. عندها، تدخل الجنديان وأبعدها إلى حيث كانت وصرخت أم موسى في وجهيهما: بأي حق تمنعان دفن قبضة رجل.. بأي حق؟

وزعقت امرأة ثانية، وثالثة.. ودارت معركة بالحجارة، والتراب، وبكل ما تيسر.. هرب على أثرها الجنديان.. زمزمت أم موسى شفتيها اللتين كانتا ترتعشان، ومضت بعد دفن القبضة، وكلام العملاء يخترق أذنيها.. بلا قبضة.. بلا قبضة.. إنه بلا قبضة.

وراحت الأصوات تضج في أذنيها.. بلا قبضة.. بلا قبضة.. بلا قبضة..

ـ بلا قبضة.. وما يضيرك يا أخي؟.

قالها جميل وهو يربت على كتف موسى، الذي كان يخضع للمعالجة في المستشفى.

ـ ليتك تقف على حقيقة مشاعري يا جميل؟.. أنت تراني أتألم، فتظنني نادماً.. على العكس تماماً.. غيري قدم نفسه.. أبي استشهد.. مئات الأطفال والنساء والرجال ماتوا.. والآلاف منهم جرحوا..

ألا ترى اننا ننتقم لكل من ذكرت؟ لكل الشهداء للجرحى، للأرض، لشجرات الزيتون والليمون التي قطعوها.. لكل بيت حرقوه.. لكل شيء؟

ـ لكل شيء.. (وتنهد موسى).. إذا كنا سننتقم لكل شيء، علينا احتساب تضحيات كبيرة.. هم استباحوا وطناً.. هل تعي ما أقول يا جميل؟ وطن بكامله تعرض للدمار.. مؤسسات صارت رماداً.. ماذا يعني كل ذلك أمام قبضة صغيرة.. فنحن بحاجة إلى آلاف القبضات يا جميل..

وبينما هما يتحدثان، يستعرضان الأوضاع، سمعا صوت ممرضة تدخل وتقول:

ـ تفضلي، إنه هنا..

ـ أنت هنا يا حبيبي؟.

قالتها أم موسى التي كانت تحمل مولوداً جديداً، ودموعها تجري غزيرة على خديها..

أنت هنا يا موسى.. وقبضتك في الأرض يا ولدي؟..

ـ كم مرة قلت لك: لا أحب رؤية الدموع على وجنتيك، لا أحب البكاء.

أسرعت تقبله، وتضم رأسه إلى صدرها.. وأردفت تقول:

ـ كنت أعلم يا موسى أنك لن تسكت عن دماء أبيك..

وجاهدت نفسها تمنع الدموع التي كانت تنهمر على خديها.

ـ قلت لك لا تبكي يا أمي.. فالأرض بحاجة لمن يدافع

عنها.. وتطلع إلى الصغير، وتلألأ على حدقتي عينيه بريق الفرح:

ـ إنه عادل.. أليس كذلك يا أمي؟

ـ عادل.. نعم.. اتيتك به، لتراه، لتفرح به..

ـ هو حلو يا مي..

ـ يشبه جده.. بل يشبهك كثيراً يا موسى.

تدخل جميل مازحاً:

ـ غداً، عندما يكبر، نضمه إلى صفوفنا، فنحن بحاجة إلى قبضات قوية.. أليس كذلك يا عادل؟.

ارتجفت أم موسى، واحتضنت الصبي.. وعادت أصوات الجنود والعملاء لتضج في أذنيها «بلا قبضة.. بلا قبضة».

ـ لا.. لا تقولوا ذلك.

ثم انتصبت وحملت قبضة الصغير وقالت والدموع تتحجر في مقلتيها:

ـ هذه قبضتك يا موسى.. لا تحزن يا بني.. فهذه قبضتك يا حبيبي(*).

(*) من مجموعة قصصية بهذا العنوان تصدر قريباً عن دار الآداب.